

الفصل الثامن عشر

زونجلى - الإصلاح الدينى فى سويسره

(١٤٧٧ - ١٥٣١)

Multum in Parvo ?

(كثير فى القليل)

دعم نجاح المقاطعات السويسرية فى صد الهجوم الذى قام به شارل الجسور (١٤٧٧) اتحادها وأشعل جندوة اعتزازها بقوميتها ، وشجعها على مقاومة المحاولة التى قام بها ماكسميليان لإخضاعها اسماً وفعلاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وثار منازعات على تقسيم الغنائم عقب هزيمة بورغنديا ، فدفعت بالمقاطعات إلى حافة الحرب الأهلية ، إلا أن فيلسوفاً ناسكاً بمجلس ستانز النيابى وهو نيكولاوس فون دير فلو - الأبخ كلاوس فى الذاكرة السويسرية - أقنعها بأن تركز إلى السلام .

وانضمت مقاطعة لثر مقاطعة إلى الاتحاد ، ليزداد قوة ، فقبات فيه فرايبورج وسولوثورن عام ١٤٨١ ، وبازيل وشافهاوزن عام ١٥٠١ ، وابنتسيل عام ١٥١٣ ، وغدا الاتحاد بعد أن انضمت إليه ثلاث عشرة مقاطعة ، تتحدث كلها باللهجات الألمانية - ما عدا فريبورج وبرن ، فقد كان الحديث يدور فيهما بالفرنسية - جمهورية اتحادية : وكانت كل مقاطعة تنظم شؤونها الداخلية ، أما علاقاتها الخارجية فكانت تحكمها سلطة تشريعية عامة .

وكانت الهيئة التشريعية الوحيدة للمجلس النيابى الاتحادى تتكون من عدد مماثل من النواب عن كل مقاطعة . ولم تكن الديمقراطية كاملة ، فقد

حرمت عدة مقاطعات من التصويت الأقلية من رعاياها ، يضاف إلى هذا أن سويسرا لم تكن نموذجاً يحتذى في حب السلام .

ولقد انتهزت المقاطعات من ١٥٠٠ - ١٥١٢ فرصة تفكك وحدة إيطاليا ، واستولت على بليزونا ولوكارنو ولوجانو وبعض المناطق الأخرى جنوب الألب ، واستمرت في تأجير خدمات الفرق السويسرية - بموافقتها - للسلطات الأجنبية . ولكن الاتحاد تخلى عن التوسع الإقليمي بعد هزيمة حملة الحراب السويسرية في موقعة مارينانو **Marignano** (١٥١٥) ، وتبنى سياسة تتسم بالحياد ، ووجه فلاحيه الأقوياء وصناعه المهرة ، وتجارة الكثيرى الموارد إلى تنمية حضارة ، تعد من أعظم الحضارات في التاريخ .

وكانت الكنيسة في سويسرة لجنة العريكة وفاسدة ، كما كانت في إيطاليا ، وأسبغت الرعاية على علماء الإنسانيات ، الذين احتشدوا حول فروبن وأرازموس في بازل ، ومنحتهم قسطاً وافراً من الحرية . وأصبح هذا دعامة من دعائم التسامح الخلقى ، الذى ساد هذا العصر ، فاستمتع القساوسة السويسريون بالحظايا^(١) . وكان أحد الأساقفة السويسريين يتقاضى من رجال الدين التابعين له أربعة جيلدرات عن كل طفل يولد لهم ، وجمع في عام واحد ١٥٢٢ جيلدر من هذا المصدر^(٢) . وشكا من أن الكثيرين من القساوسة يقامرون ، ويترددون على الحانات ، ويشملون علناً^(٣) ، دون أن يدفعوا رسماً للأسقفية . وبدأت عدة مقاطعات ، وبخاصة زيورخ ، في الإشراف المدنى على رجال الدين ، وفرضت الضرائب على أملاك الأديرة . وزعم أسقف كونستانس أن زيورخ بأسرها إقطاعية تابعة له ، وطالب بخضوعها له وبضرائب العشور المفروضة عليها ، ولكن البابوية كانت جد مرتبكة باتجاهات السياسة الإيطالية ، فلم تستطع أن تؤيد مزاعمه بالفعل . ولقد وافق البابا يوليوس الثانى فى عام ١٥١٠ على أن يدير مجلس المدينة فى جنيف الأديرة ، وأن يضع قواعد للأخلاق العامة فى نطاق سلطته^(٤) ،

وذلك مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف . ومن ثم فإن روح الإصلاح الديني كانت قد تحققت في زيوريخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، وهي سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية وأصبح الطريق ممهداً أمام زونجلى وكالفن لوضع الأسس المختلفة التي رأوا أنها تزيل هوة الخلاف بين الكنيسة والدولة .

٢ - زونجلى

إن زيارة يقوم بها المرء إلى محل ميلاد هولدرايخ ، أو أولريخ زونجلى ، لتوحى له بالقاعدة غير المضطربة التي تذهب إلى أن العظماء من الرجال إنما يولدون في بيوت متواضعة ، ولقد استهل أعظم المصلحين الدينيين العقلانيين ، الذين جانهم التوفيق حياته (أول يناير عام ١٤٨٤) في كوخ صغير بقرية فيلدهاوس ، التي تربض في واد جبلى على بعد خمسين ميلاً جنوب شرقي زيوريخ في مقاطعة سانت - جولده الحالية ، سقف جملوني منخفض ، وجدران من ألواح ثقيلة ، ونوافذ مقسمة إلى مربعات ، وأرضيات مكونة من ألواح مصمتة ضخمة ، وسقوف واطئة ، وحجرات مظلمة ، ودراجات تحدث صريراً ، وأسرة متينة من خشب البلوط ، ومنضدة وكرسى ورف للكتب ؛ وهذا البيت التاريخي يدل على بيئة كان الانتخاب الطبيعي فيها يتم بصورة صارمة ، أما الانتخاب الحارق للطبيعة فقد كان يبدو أملاً لا غنى عنه ، وكان والد أولريخ كبير القضاة في هذه القرية الصغيرة المغمورة أما أمه فكانت شقيقة قس معترزة بنفسها . وكان الابن الثالث من بين ثمانية أبناء يتنافسون على الظفر بإعجاب شقيقتين ، ويبدو أنه قدر قد عليه أن يكون قساً منذ نعومة أظفاره .

وأسهم عمه ، وهو نائب الأسقف في كنيسة قرب فيزين ، في تعليمه مع والديه ، وكان له الفضل في أن يكون زونجلى نزعاً إنسانية وإتساع أفق ، تميز بها بوضوح عن لوثر وكالفن . وعند ما بلغ الصبي العاشرة من

عمره أرسل إلى مدرسة لاتينية في باويل ، وفي الرابعة عشرة دخل كلية في
برن يرأسها أحد الأهاليين من أنصار الكلاسيكية المبرزين . ودرس من السادسة
عشرة إلى الثامنة عشرة في جامعة فيينا ، في الفترة التي ازدهرت فيها
الدراسات الإنسانية ، في عهد كونراد سيلتس . وكان يسرى عن نفسه
ما يلاقه من عناء بالعزف على العود والقيثار والكمان والناي والسنطير .

وفي الثامنة عشرة من عمره عاد إلى بازيل ، ودرس اللاهوت على يد
توماس فيتنباخ ، الذي هاجم قبل الأوان عام ١٥٠٨ صكوك الغفران وعزوبة
رجان الدين والقديس . وحصل زونجلي على درجة الماجستير ، وهو في
الثانية والعشرين من عمره ، (١٥٠٦) ورسم قساً . واحتفل بإقامة أول
قديس له في فيلدهاوس وسط الأقارب المبهجين ، واشترى بمبلغ مائة
جيلدر جمعت له وظيفة راعي أبرشية^(٥) في جلاروس على بعد عشرين ميلاً .

وهناك تابع دراساته في الوقت الذي كان يؤدي فيه واجباته بغيرة
وحماسة ، وتعلم اليونانية ليقرأ العهد الجديد بلغته الأصلية ، وقرأ بحماسة
مؤلفات هوميروس وبنندار وديموكريتوس وبلوتارك وسيشرون وقيصر
وليني وسينيكا وبليني الأصغر وتاسيتوس ، وكتب تعليقا على مؤلف لوسيان
الشكاك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس ،
ويوصف أرازموس بأنه « أعظم فيلسوف وعالم باللاهوت » ، وزاره موقراً
إياه (١٥١٥) ، وكان يقرأ له كل ليلة قبل أن ينام . وقد درج ، مثل
أرازموس ، على أن يسلق بلسان لاذع فساد رجال الدين ، وأن يسخر
يقطرته من التطرف في العقيدة ، وأن يرفض بشدة الرأي القائل بأن قدامى
الفلاسفة والشعراء يصلون نار جهنم . « وأقسم أنه يؤثر أن يشاطر سقراط
أو سينيكا حظه المقدمور ولا يتلقى الإنعام من البابا »^(٦) . ولم يسمح لعهود
الكهنوتية بأن تحرمه من ميلدات الجسد ، فكانت له علاقات مع ساء
بترخصات ، وظل منغمساً في ميلداته هذه حتى تزوج عام ١٥١٤ .

ولم تعباً بأفعاله جموع المصلين عنده ، وظل البابوات يدفعون له حتى عام ١٥٢٠ معاشاً قدره خمسون فلورين ، نظير تأييده لهم ضد الحزب المناصر للفرنسيين في جلاروس . واصطحب من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥١٥ فرقة الجنود المرتزقة السويسرية في جلاروس إلى إيطاليا ، بصفته واعظاً لها ، وبذل أقصى ما في وسعه لكي يحمل الجنود على الحفاظ على ولائهم للقضية البابوية ، إلا أن صلته بالحرب في المعارك التي دارت في نافارو ومارينيانو ، جعلته يعارض بشدة أي تدبير يبيع شجاعة الجنود السويسريين للحكومات الأجنبية .

وفي عام ١٥١٦ فاز الحزب الفرنسي في جلاروس ، وأصبحت له اليد الطولى ، فانتقل زونجلي إلى أبرشية في أنيزيدان بمقاطعة شفيتز ، وهنا اصطبغت عظمته بصبغة بروتستانتية حتى قبل قيام ثورة لوثر ، وناذى عام ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب وأبلغ كبير الأساقفة الكاردينال ماثهويس شينر أن في الكتاب المقدس أجازة ضعيفة للبابوية ، ولقد هاجم في أغسطس عام ١٥١٨ مساوي بيع صكوك الغفران ، وحرّض رهبان البندكتيين على أن يرفعوا من المزار ، الذي أقاموه للعنراء ، والذي يعود عليهم بالربح الوفير ، نقشاً يعدون فيه الحجاج بـ « الغفران الكامل لجميع الخطايا التي اقترفوها وإعفائهم من العقاب أيضاً » (٧) . وعاد بعض الحجاج من زيوريخ إلى قساوستهم برواية حماسية عن وعظه . وفي العاشر من ديسمبر عام ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه « قساً » أو « قسيساً للشعب » في جروسمنستر أو الكنيسة الكبرى في زيوريخ أعظم المدن السويسرية جرأة ، وكان في ذلك الوقت يقترب من النضج في الروح المعنوية والتعقل . وقام بإلقاء سلسلة من العظات فسر فيها ، من النص اليوناني ، العهد الجديد بأسره ما عدا سفر الرؤيا ، الذي لم يكن يحبه ، وكان يطوى بين جوانبه شيئاً من الصوفية ، التي أسهمت في تكوين لوثر . وليس لدينا صورة شخصية له ،

أخذت إبان حياته ، ولكن معاصريه وصفوه بأنه رجل وسيم أصهب صريح النسب ، له صوت شجي ، يستولى على ألباب جموع المصلين في كنيسة ، ولم يكن يضارع لوثر في الفصاحة أو التفسير ، ومع ذلك فإن عظاته كانت مقنعة ، لما تتسم به من صدق وشفاء ، وسرعان ما استجابت زيوريخ بأسرها لتأثيره . وأيده رؤساؤه من رجال الدين عند ما استأنف حملته ضده بيع صكوك الغفران . وقد اجتاز في أغسطس عام ١٥١٨ برنهاردن سمسون الراهب الفرنسيسكاني من ميلان (**Bernhardin Samson**) مضيق سانت جوتار ، وأصبح تيتزل سويسرة . وقدم صكك غفران من البابا ليو إلى الأغنياء على ورق الورشمان نظير ريال ، وإلى الفقراء ، مقابل بضع بنسات ، وبتلويحة من يده أعني كل الأرواح التي هلكت في برن من عذاب المطهر . واحتج زونجلى ، وظاهره في هذا الاحتجاج أسقف كونستانس ، ولما كان ليو العاشر على علم بشيء من الأحداث الجارية في ألمانيا ، فقد استدعى رسوله المتلاف . وفي عام ١٥١٩ انتشر وباء الطاعون في زيوريخ ، وقضى على ثلث السكان في خلال نصف عام . ولازم زونجلى مقره ، وواصل العمل ليلا ونهاراً في العناية بالمرضى ، وأصيب هو نفسه بعدوى المرض ، وأشرف على الهلاك ، وما أن عوفي حتى غدا أعظم شخصية في زيوريخ ، تحظى بالشعبية ، وبعثت إليه بالتهاني بعض الشخصيات المرموقة ، التي تقيم بعيداً عنه ، من أمثال بركهايمر وديرر . ونصب عام ١٥٢١ كبيراً للقساوسة في جروسهنتسر ، وأصبح وقتذاك من القوة بحيث استطاع أن ينادى في سويسرة بالإصلاح الديني .

٣ - إصلاح زونجلى الديني

ولقد تغيرت شخصية راعي الأبرشية في كنيسة ، دون وعي منه تقريباً ، وإن كان هذا التغيير نتيجة طبيعية لما تلقاه من تعليم غير عادي . . . كانت الموعدة قبله هيئة الشأن ، ويكاد القداس والقربان المقدس أن يستغرقا

معظم الخدمة الدينية ، وقد جعل زونجلى الموعظة المسيطرة في إقامة الشعائر الدينية ، وأصبح معلماً لا يقل براعة عنه واعظاً ، وكلما ازدادت ثقته اشتد إقناعه بأن المسيحية يجب أن تعود إلى بساطتها الأولى في النظام والعبادة . ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس « عن الكنيسة » ، فما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتوسل بالقدسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور للكنيسة يجب أن يكون بمحض الاختيار ، كما جاء في الكتاب المقدس . ورجاه الأسقف الذى يتبعه أن يسحب هذه العبارة ، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة ، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعيّنين في نطاق اختصاصه ، أن تقتصر عظاتهم على ما وجدوه في الكتاب المقدس . وفي عام ١٥٢١ أقنع زونجلى المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين في صفوف الفرنسيين ، وبعد مرور عام امتد الحظر حتى شمل كل الدول الأجنبية ، وعند ما استمر الكاردينال شينر في تجنيد الفرق السويسرية للبابا ، أوضح زونجلى لجمهور المصلين عنده ، أن الكاردينال كان لا يرتدى قبعة حمراء دون داع لأنها « إذا عصرت لرأيت دم أقرب الأقربين يقطر من ثناياها » (٨) . ولما لم يجد في العهد نصاً يحرم اللحم في الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبرشيته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير . واحتج أسقف كونستانس ، فرد عليه زونجلى في كتاب عنوانه (بداية ونهاية) تبدأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح البطارقة بأن يقلدوا قيصر وأن يطووا حولهم أرواحهم ، ويموتوا في جلال ووقار . والتمس ، هو وعشرة من القساوسة الآخرين ، من الأسقف أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت (١٥٢٢) . وكان في إبان ذلك العهد يحتفظ بسيدة تدعى أنا راينهارد بصفة عشيقة أو زوجة له في الخفاء . وتزوجها علناً عام ١٥٢٤ قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام .

وقد سبق هذا الانفصام النهائى من الكنيسة جملان ذكرا الناس بمناظرة

لوثر وايلد في ليبزج ، وكانت لهما أصداء بعيدة في جدل أبنصار الفلسفة الكلامية في جامعات العصور الوسطى .

ولما كانت سويسرة جمهورية نصف ديمقراطية فلم يروعها رأى زونجلى ، الذى يذهب إلى أن الخلافات بين آرائه وآراء خصومه المحافظين يجب أن تلى أذناً صاغية غير متحيزة ، وأخذ مجلس زيوريخ الكبير على عاتقه باغتباط مهمة الحكم على رجال الدين ، فدعا الأساقفة أن يرسلوا ممثلين لهم فحضروا بكامل أهبتهم واحتشد منهم نحو ستمائة في قاعة المدينة ، للاشتراك في الجدل المثير (٢٥ يناير سنة ١٥٢٣) .

وعرض زونجلى سبعة وستين بنداً يدافع عنها :

١ - يخطئ كل من يقول أن الإنجيل لا يساوى شيئاً ، إذا لم ترض عنه الكنيسة .

١٥ - يتضمن الإنجيل الحقيقة بأكملها في وضوح وجلالة

١٧ - المسيح هو الكاهن الأعظم الخالد الوحيد ، والذين يزعمون أنهم كهنة عظام ، إنما يعارضون في الحقيقة شرف المسيح وجلاله .

١٨ - أن المسيح الذى ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب ، قد قام بالتضحية الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين ، ومن ثم فإن القداس ليس تضحية ، وإنما هو تذكرة للتضحية الوحيدة على الصليب

٢٤ - المسيحيون غير مكلفين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا في جميع الأوقات كل أنواع الطعام

٢٨ - كل ما يبيحه الله ولم يجرمه خلال . ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس .

٣٤ - لا أساس للسلطة الروحية التى يطلق عليها اسم (الكنيسة) في الكتب المقدسة وفي تعاليم المسيح .

٣٥ - إلا أن السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته (إصحاح لوقا ٢ - ٥ وإصحاح متى ٢٢ ، ٢١)

٤٩ - لا أعرف فرية أعظم من تحريم الزواج الشرعي على القساوسة ، بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة . يا للعار ! .

٥٧ - إن الكناس المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر

٦٦ - على جميع الرؤساء الروحيين أن يبادروا بالتوبة ، وأن ينصبوا صليب المسيح وحده وإلا هلكوا . إن البلطة موضوعة على الجذر (٩) .

ورفض جوهان فاير - الأستف العام لأبرشية كونستانس هذه الآراء تفصيلاً ، وطالب بأن تطرح أمام جامعات كبيرة أو أمام مجلس عام للكنيسة . ورأى زونجلى أن هذا لا ضرورة له . فبعد أن أصبح العهد الجديد وقتذاك في متناول الناس باللغات الدارجة ، صار في وسع الجميع أن يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفي ووافق المجلس وأعلن أن زونجلى برىء من الهرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت في زيوريخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجلدون له سنداً في الكتاب المقدس . وهنا تولت الدولة أمر الكنيسة كما حدث بألمانيا في عهد لوثر .

وقبل معظم القساوسة - بعد أن ضمنت لهم الدولة الآن روايتهم - أمر المجلس . وتزوج الكثيرون منهم وتعمدوا باللغة الدارجة وأنفخوا أمر القداوس وتخلوا عن تقديس الصور . وبدأت عصبية من المتحمسين في إتلاف الصور وإتئاتيل بلا تمييز في كنائس زيوريخ . وانزعج زونجلى من انتشار العنف على هذا النحو فرتب مناظرة أخرجت (٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣) حضرها ٥٥٠ من عامة الناس و ٣٥٠ من رجال الكهنوت . وتمخضت عن أمر صدر من المجلس يقضى بأن تتولى لجنة من أعضائها زونجلى . إعداد كتيب يتضمن تعليمات ، توضح العقيدة للناس . وأن يتوقف في غضون ذلك العنف بجميع صورته . وألف زونجلى بسرعة « مقامة قصيرة في المسيحية » أرسلت لجميع رجال الدين في المناطقة .

واحتجت السليطة الكهنوتية الكاثوليكية ، وأيدها في الاحتجاج المجلس

النيابي للاتحاد الذي اجتمع في لوسون (٢٦ يناير سنة ١٥٢٤) ، في الوقت نفسه تهجد بالقيام بإصلاح كهنوتي ، غير أن مجلس المدينة تجاهل هذه الاحتجاجات .

وصاغ زونجلي عقيدته بتوسع في رسالتين باللاتينية : « الدين الحقيقي والزائف (De vera et false religione) (١٩٢٥) و (Ratio fidei) (١٥٣٠) وقبل لاهوت - الكنيسة الأساسي - إله ثلاثي التوحد ، وهبوط آدم وحواء من الجنة ، وتجسد الأقبوم الثاني ، وولادة العذراء والتكفير ، ولكنه فسر « الخطيئة الأصلية » لا بأنها لوثة إثم ورثناه من « أبائنا الأوائل » ولكن بأنها نزعة غير اجتماعية ، تكمن في طبيعة الإنسان (١٠) . وقد اتفق في الرأي مع لوثر بأن الإنسان لن يستطيع أبداً أن يحصل على الخلاص بالأعمال الصالحات ، بل يجب أن يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح المقترن بالتضحية . واتفق في الرأي أيضاً مع لوثر وكالفن في موضوع القدر : كل حادث وبالتالي المصير الأزلي لكل فرد قدره الله ، ولا بد أن ينفذ كما قدر سبحانه ، ولكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل ، التي بسطت عليهم ، وكل طفل (من أبوين مسيحيين) يموت ، وهو طفل ، يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمد ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة . وجهنم حق ، أما المطهر فهو « خرافة » مهنة مريجة لمن ابتدعوه » (١١) وليس في الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرايين المقدسة فلإنها ليست وسائل معجزة بل رموزاً نافعة لرحمة الله والاعتراف السري لا ضرورة له ، وليس في وسع قسيس أن يغفر لأحد - خطيئته - فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمتاعبنا إلى قسيس (١٢) . وليس العشاء الرباني ، أكلاً فعلياً لجسد المسيح ، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية .

وحافظ زونجلي على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة التي

يقرها الإصلاح الديني ، وناول القربان بالخبز والنبيذ معاً ، ولكنه لم يناوله إلا أربع مرات في العام . وفي ذلك الاحتفال العرضي أبقى على جانب كبير من القداس ، وإن أخذ جمهور المصلين والقس يتلونونه باللغة الألمانية في سويسرة . أما في باقي السنة فقد كان يستبدل بالقداس العظة الدينية . وأصبح سلطان الشعيرة على الحواس والتصور تابعاً لتأثير مخاطبة العقل ، وهو مقامرة تتسم بالتهور على الذكاء الشعبي وقدرة الأفكار على الثبات ، ولما كان من الضروري أن يستبدل بكنيسة معصومة من الخطأ إنجيلاً لا تشوبه شائبة ليكون نبراساً للعقيدة والساوك ، فإن الترجمة الألمانية للعهد الجديد التي قام بها لوثر ، أعدت باللهجة الألمانية في سويسرة ، وعهد إلى هيئة من العلماء ورجال الدين برئاسة قداسة ليوجود إعداد نسخة بالألمانية من الكتاب المقدس بأسره ، وقد نشر هذه النسخة كريستيان فروشاور عام ١٥٣٤ في زيوريخ ، قبل أن تظهر نسخة لوثر - وهي خير منها - بأربع سنوات .

وفي امثال صادق للوصية الثانية ، ودلالة على عودة المسيحية البروتستانتية إلى تقاليد اليهودية الأولى ، أمر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية ومخالفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، بل إن آلات الأرغن أبعدت عنها ، وترك الصحن الداخلي الفسيح لكنيسة جروسمنستر عاطلاً كئيب المنظر ، كما هو اليوم . وحقاً أن بعض الصور كان سخيفاً بصورة لا يقبلها العقل ، وبعضها كان مهيباً للاستسلام للخرافة والوهم بحيث يستحق الإطلاف ، إلا أن جانباً منها كان جميلاً ، إلى حد دفع هينريخ بولينجر نحلف زونجلى إلى أن يحزن لفقدائها . وكان لزونجلى نفسه موقف متسامح من التماثيل التي لا تعبد باعتبارها أصناماً نحارة الصنع (١٣) ، ولكنه صمغ عن عملية التقويض باعتبارها زجراً لعبادة الأصنام (١٤) ، وسمح للكنائس القروية في المقاطعة بأن تحتفظ بتماثيلها ، إذا كانت هذه رغبة غالبية جموع المصلين . واحتفظ الكاثوليك ببعض الحقوق المدنية ، ولكنهم لم يقبلوا في الوظائف

العامّة . وعوقب كل من يحضر القداس بغرامة ، وحرّم (١٥) مبدأ أكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة . وأغلقت أديرة الرهبان والراهبات (باستثناء دير واحد) أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وبرزت الرهبان والراهبات من الدير لعقد زواجهن ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج والماء المقدس والقداسات التي كانت تقام للموتى .

وعلى الرغم من أن كل هذه التغييرات لم تتم حتى عام ١٥٢٤ ، فإن الإصلاح الديني ، حتى ذلك الوقت ، كان قد بلغ درجة من الرقي ، في عهد زونجلى وفي زيورخ ، تفوق ما بلغه في عهد لوثر وفي فيتنبرج ، وكان لوثر وقتذاك راهباً أعزب لا يزال يردد القداس .

وشكلت زيورخ مجلساً خاصاً ، في نوفمبر عام ١٥٢٤ ، يتكون من ستة أعضاء لإعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة أو الدقيقة ، التي كانت تعاني منها الحكومة ، وتم بين زونجلى وهذا المجلس نوع من التفاهم ، اتخذ شكلاً ما ، إذ سلم له بتنظيم كل الشؤون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء ، وكان المجلس في كل من المجالين يتبع قيادته . وأصبحت الكنيسة والدولة في زيورخ منظمة واحدة ، على رأسها زونجلى بصفة غير رسمية ، وفيها ارتضى الإنجيل (كما هو الحال بالنسبة للقرآن في الإسلام) المصدر الأول والحكم الأخير للشريعة . وتحقق في زونجلى ، كما تحقق في كالفن فيما بعد ، المثل الأعلى للنبي الذي يرشد الدولة ، كما تصوره العهد القديم .

وما أن حقق زونجلى هذا النجاح التام والسريع في زيورخ حتى قلب عيناً متسائلة في المقاطعات التي تدين بالكاثوليكية ، وتساءل ألا يمكن كسب سويسرة بأسرها لصف الشكل البلدي للعقيدة القديمة ؟

٤ - إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون

ولقد مزق الإصلاح الديني «الاتحاد» ويبدو أنه قدر له أن يقضى عليه ،
وآثرت برن وبازيل وشافهاوزن وآبنتسل والجريزونيون أن تناصر زيورخ ،
أما باقي المقاطعات فقد ناصبتها العداة . وكونت خمس مقاطعات - وهي
لوسرن وأوري وشفتينز وأونترفالدين وتسوج - حلفاً كاثوليكياً لقمع كل
الحركات الهسية واللوثرية والزونجالية (١٥٢٤) ، وحث الأرشيدوق فرديناند
النمساوي كل الولايات الكاثوليكية على أن تقوم بعمل موحد ، ووعدوا
بتقديم المساعدة . وليس من شك في أنه كان يطمح في أن يستعيد سلطات
آل هابسبورج في سويسرة . وفي السادس عشر من يوليو وافقت كل
المقاطعات باستثناء شافهاوزن على إقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية
في المستقبل . وردت زيورخ وزونجلى على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة
ثورجاو لإعلان الإصلاح الديني . وقبض على واحد من هؤلاء ، إلا أن
بعض الأصدقاء أنقذوه ، وساروا في حشد هائج نهب ديراً وأحرقه ، وحطم
التماثيل في عدة كنائس (يوليو ١٥٢٤) ، وأعدم ثلاثة من الزعماء ، وثار
روح عسكرية بين الطرفين . وروّع أرازموس ، وهاله الظهور في بازيل
خشية أن يرى متعبدين أتقياء يثورون بعد سماع وعاظهم ويخرجون من
الكنيسة « كرجال تملكهم جنة ، يرتسم الغضب والهياج على أساريهم » ،
كمحاربين يسرون وراء قائدهم للقيام بهجوم قوى » (١٦) . وهددت ست
مقاطعات بأن تترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وأشار زونجلى ، وقد أعجبه القيام بدوره بالحديد كقائد حربي ، على
زيورخ بأن تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة أسلحتها ، وأن تنشد
التحالف مع فرنسا ، وأن تشعل ناراً وراء فرديناند بالتحريض على الثورة

في التيرول وبعد تورجاو وسان - جال بمنحهما أملاك الأديرة مقابل تأييدهما لها . وعرض على الحلف الكاثوليكي السلام بثلاثة شروط : -

أن يسلم لزيورخ دير سان - جال الشهير وأن يتخلى عن الحلف النمساوي وأن يسلم إلى زيورخ توماس مورنر الهجاء اللوسرني ، الذي طالما وجه نقداً لاذعاً في كتاباته للمصلحين الدينيين . وسخر الحلف من هذه الشروط ، فأمرت زيورخ ممثلها في سان - جال بالاستيلاء على الدير فأطاعوا (٢٨ يناير ١٥٢٩) ونخفت حدة التوتر في فبراير إثر أحداث في بازيل .

كان زعيم البروتستانت في « أثينا سويسرة » هو جوهانس هاوسشاين ، الذي أسبغ على اسمه صفة الهلينية ، ومعناه مصباح البيت ، فأطلق على نفسه اسم أويكو لامباديوس . وقد نظم الشعر باللاتينية ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، وسرعان ما أتقن اللغة اليونانية فيما بعد ، وكان لا يفوقه في إتقان اللغة العبرية إلا رويخلين ، وذاع صيته كمصلح ديني وأخلاقى رقيق العاطفة في كل شيء إلا الدين ، وذلك من فوق منبره في كنيسة سانت مارتن ، وفي كرسى الأستاذية للاهوت في الجامعة . وما أن حل عام ١٥٢١ حتى كان يهاجم مساوي كرسى الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العنراء . وحياة لوثر عام ١٥٢٣ ، وتبنى عام ١٥٢٥ برنامج زونجلي الذي يشمل اضطهاد الاعممدين ، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن « خلاصنا يأتي من الله أما هلاكنا فن أنفسنا » (١٧) . وعند ما أعلن مجلس مدينة بازيل ، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت ، حرية العبادة (١٥٢٨) احتج أويكو لامبادموس وطالب بتحريم القداس .

واجتمع في ٨ فبراير عام ١٥٢٩ ثمانمائة رجل في كنيسة الفرانسيسكان وبعثوا بطلب إلى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القداس وعزل كل الكاثالكة من مناصبهم وبسريان دستور أكثر ديمقراطية ، وتشاور المجلس في الأمر ،

وفي اليوم التالي أقبل مقدمو الالتماس إلى السوق ، وهم مدججون بالسلاح ، وعند ما حل الظهر ولم يصل المجلس بعد إلى قرار تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق ، وحطموا كل التماثيل الدينية التي وجدوها (١٨) . ووصف أرازموس الواقعة في خطاب له بعث به إلى بيركهايمر :

لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهاكوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائماً عند ما يساء إلى القديسين أدنى إساءة . أنهم لم يبقوا على تماثيل واحد في الكنائس أو في الدهاليز أو في الأروقة أو في الأديرة . وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الجير ، وألقي في النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقي حتى استحال إلى شظايا . ولم يستبق شيء بدافع الحب أو المال (١٩) .

وتلقف المجلس التلميح وصوت بإلغاء القديس إغناطيوس ، وغادر بازيل أرازموس وبياتوس رينانوس وكل الأساتذة في الجامعة تقريباً . وعاش أويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة ، ولكنه لم يعمر إلا سنتين ، إذ سرعان ما مات بعد وفاة زونجلى .

وفي مايو عام ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظامه في مدينة شفيتز . وأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ، ورسم خطة الحملة ، وقاد بنفسه فرق المقاطعة ، وأوقفهم رجل يدعى لانديمان أيبلى الجلا روسى في كايل ، التي تقع على بعد عشرة أميال جنوب زيورخ ، وتوسل إليهم أن يمنحوه ، على سبيل الهدنة ، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف . وساور زونجلى الشك في أن الأمر ينطوي على خيانة ، وآثر أن يتقدم بجيشه فوراً . إلا أن حلفاءه من أهل برن تغلبوا عليه هم وجنوده ، الذين تآخروا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين وبين اللاهوتين ، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً

وأخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين ، ووقعت اتفاقية كابل الأولى للسلام (٢٤ يونية ١٥٢٩) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات بموجبها على دفع تعويض لزيورخ ، وإنهاء تحالفها مع النمسا ، وحظر مهاجمة أى من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية ، وعلى أن يترك للناس فى «الأراضى المشتركة» التابعة لمقاطعة أو أكثر أن يقرروا بأغلبية الأصوات تنظيم حياتهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن زونجلى لم يرض عن هذا الاتفاق ، فقد طالب بإطلاق حرية البروتستانت فى الوعظ بالمقاطعات الكاثوليكية ، ولم يتلق ما يفيد إجابته إلى طلبه ، وتنبأ بوقوع تصدع قريب للسلام .

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت فى سويسرة وألمانيا . وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع كليمنت السابع ، وأصبح كل منهما وقتذاك حراً فى أن ينضم بقواته بخاربة البروتستانت ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة ، فقد كان نصف سكان ألمانيا من أتباع لوثر ، وكان كثير من المدن الألمانية - أولم وأوجسبورج وفيرتمبيرج وماينز وفرانكفورت - على - الماين وشراسبورج - تتعاطف بشدة مع أتباع زونجلى ، وعلى الرغم من أن المناطق الريفية فى سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية ، فإن معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية . وكان من الواضح أن حماية النفس من الإمبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف فى الطريق إلا اللاهوت .

وأخذ فيليب لاندجراف الهيسى زمام المبادرة بدعوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الألمان لمقابلة زونجلى وأوريكو لامبيادوس وآخرين من البروتستانت السويسريين فى قصره بماربورج شمالى فرانكفورت . وتقابل الحزبان المتناظران فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، وأقدم

زونجلى فى سخاء على التسليم ببعض الأمور وأزال ما ساور لوثر من شك فى أنه يتشكك فى ألوهية المسيح ، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية . ولكنه لم يتراجع عن رأيه فى القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى أكثر منه معجزة . وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح : « هذا جسدى » ولم يقبل أن يفسرها إلا تفسيراً حرفياً . ووقع الطرفان اتفاقاً ، تضمن أربعة عشر بنداً ، ولكنهما اختلفا فى موضوع القربان المقدس (٣ أكتوبر) ولم يكن اختلافهما متسماً بالود ، ورفض لوثر أن يصفح اليد التى مدها إليه زونجلى ، وقال : « إن روحك تختلف عن روحنا » . واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً يشمل « التجسد » ، وأقنع الأمراء اللوثرين برفض التحالف مع أى جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر (٢٠) . واتفق ميلانكتون فى الرأى مع أستاذه ، وكتب يقول لقد أبلغنا أتباع زونجلى أننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمائرهم بأن ينادونا بأخوتهم فى الوقت الذى يتمسكون فيه بأن عقيدتنا خاطئة (٢١) . وهنا تتضح روح العصر فى جملة واحدة . وفى عام ١٥٣٢ حدث لوثر اللدوق البرنخت البروسى على ألا يسمح لأى شخص من أتباع زونجلى بالإقامة فى أرض بلاده ، وإلا حقت عليه اللعنة الأبدية .

وكان كثيراً جداً مطالبة لوثر بأن يجناز فى خطوة واحدة المسافة من العصور الوسطى إلى الحديثة ، فقد كان تأثره بدين القرون الوسطى عميقاً جداً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل صابراً أى جحود لأركانه الأساسية ؛ وأحس ، كأى كاثوليكي متدين ، أن عالمه الفكرى سوف ينهار ، وأن معنى الحياة بأسره سوف يندوى ، إذا خسر أى عنصر أساسى من عناصر العقيدة التى كانت قد صاغته ، والحق أن لوثر كان أقرب المحدثين إلى القرون الوسطى ، وعاد زونجلى بعد أن حطمه هذا الفشل إلى زيورخ ، التى أصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته . وعم الاستياء من قوانين النفقات

الصارمة ، وعرقلت التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات ، ولم يرض الحرفيون عن صوتهم الضئيل في الحكومة ، وفقدت عضات زونجلى المختلطة بالسياسة إلهامها وسحرها . وكان شعوره بالتغير قوياً إلى الحد الذي طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن أبرشية في مكان آخر ، ولكنه أقنع بالبقاء .

ونخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة ، وأرسل عام ١٥٣٠ رسالته *ratio fidei* إلى شارن الخامس ، الذي لم يبد منه ما يدل على أنه تلقاها .

وفي عام ١٥٣١ وجه إلى فرانسيس الأول رسالة عنوانها « عرض موجز وواضح للعقيدة المسيحية » ، وفي هذه الرسالة عبر عن اقتناعه ، الأرازموسى بأن أى مسيحي سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحق وموسى وأشعيا فحسب . . . ولكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرستيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، وقال : « وباختصار ليس هناك رجل صالح ولا عقل مقدس ولا روح مخصصة ، منذ بداية العالم إلى نهايته ، لن تراها هناك مع الله . ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ومسرة الفؤاد وسموا بالروح من هذا المنظر » (٢٢) ، وذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لا بد أن يكون « وثنياً » (٢٣) ، واتفق الأسقف بوسويه في رأى في هذه المرة مع لوثر ، فاستشهد بهذه الفقرة ليثبت أن زونجلى (٢٤) كافر لا أمل في إصلاحه .

واجتمع في ١٥ مايو عام ١٥٣١ مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعندما رفضت المقاطعات اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات وأعلنت الحرب . وسار من جديد

جيشان متناظران ، وتقدم زونجلى مرة أخرى ، وحمل العلم ، وتقابل الجيشان مرة ثانية في كايبيل (١١ أكتوبر سنة ١٥٣١) - جيش الكاثوليك ويضم ٨٠٠٠ رجل وجيش البروتستانت ويضم ١٥٠٠ - واشتبك الجيشان في هذه المرة ، وانتصر الكاثوليك ، وكان زونجلى البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين ٥٠٠ رجل قتلوا من أهل زيورخ . ومنزق جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث (٢٥) . وعند ما سمع لوثر بموت زونجلى هتف يقول « إن هذا حكم السماء على كافر (٢٦) » وانتصار لنا (٢٧) ويروى أنه قال : « كم أود من أعماق قلبي لو أمكن إنقاذ حياة زونجلى ولكنى أخشى أن يحدث العكس لأن المسيح قال إنه : « ملعون كل من يكفر به » (٢٨) .

وخلف هينريخ بولينجر في زيورخ سلفه زونجلى ، أما في بازيل فقد اضطلع أوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة أويكو لامبيادوس ، وتجنب بولينجر الخوض في الأمور السياسية ، وأشرف على مدارس المدينة ، وتستر على اللاجئين من البروتستانت ، ووزع أموال البر على المحتاجين ، بغض النظر عن المذهب الذى يعتنقونه ، وانضم إلى ميكونيوس وليوجود في صياغة أول إقرار للسويسريين البروتستانت من أتباع زونجلى ، الذى ظل جيلاً كاملاً التعبير الرسمى عن آراء زونجلى ، واستخلص مع كالفين اتفاق تيجورينوس (١٥٤٩) **Consensus Tigurinus** الذى حمل زيورخ والبروتستانت من أهالى جنيف على تكوين « كنيسة تؤمن بالإصلاح الدينى » .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائى فإن الكاثوليكية استعادت في السنين الأخيرة كثيراً من أرضها المفقودة في سويسرة ، ويرجع جزء من ذلك إلى انتصارها في كايبيل ، وليس من شك في أن إثبات قضايا اللاهوت أو عدم إثباتها في التاريخ إنما يتم بالتنافس في المذبحة أو في إثراء الموارد . واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات - وهى لوسرن وأورى وشفيتز

وتسويج وأوفر فالدن وفريبورج وسولوثورن . وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية نهائياً . . . وهي زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن ، أما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العقيدتين لا يستقر رأيها على قرار على وجه اليقين ، ووفق فالنتين تشودي ، خلف زونجلى فى جلاروس ، بين وجهتى النظر ، بأن قال بإقامة قداس فى الصباح للكاثوليك ، وإلقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية - من الكتاب المقدس لا غير - فى المساء للبروتستانت ، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين ، وقوبل بالتسامح ، وكتب مدونة تاريخية ، اتسمت بعدم التحيز ، إلى حد أنه لا يستطيع امرؤ أن يجزم بالعقيدة التى كان يؤثرها ، فحتى فى ذلك العصر كان هناك مسيحيون .